

الطريق الاشتراكي إلى الوحدة

مداخلة لياسين الحافظ في أعمال ندوة نشرت في مجلة الثقافة العربية في اواخر السبعينات

خط العمل الأساسي للإمبريالية في الوطن العربي حجر الزاوية في استراتيجية القوى الإمبريالية

الهدف العام للإمبريالية هو حماية وتعزيز المصالح والأوضاع الإمبريالية : التجارة الإمبريالية، البترول، إسرائيل، التجزئة، الإقطاعية، الرأسمالية الكومبرادورية، العروش، النظم العشائرية والطائفية، الخ... فكل ذلك غدا في عصر الإمبريالية جزءاً من الأوضاع الإمبريالية، لأن كل واقعة من هذه الوقائع تشكل حلقة في السلسلة الإمبريالية التي تكبل الوطن العربي، وعاملاً من عوامل التخلف، والتبعية للإمبريالية بالنتيجة. ذلك هو الهدف العام العريض لعمل الإمبريالية في الوطن العربي.

ولكن ما هو صلب ما تستهدفه القوى الإمبريالية في الوطن العربي؟ ما هو خط العمل الأساسي للإمبريالية في الوطن العربي؟

إن خط عملها الأساسي، إن صلب هدفها هو استمرار التجزئة ومنع الوحدة. ولكن هذا لا يعني أن عمل الإمبريالية يمكن أن ينحصر في "منع الوحدة" - خصوصاً إذا فهمت الوحدة كاتفاق سياسي لتكوين دولة واحدة! - فهي مشغولة بالدفاع عن المصالح البترولية، وبمساعدة إسرائيل، وباستنزاف الثروات المعدنية، وبالدفاع عن العروش إلخ... "فضلاً عن" كونها تعمل ضد الوحدة.

تأييد التجزئة هو حجر الزاوية في استراتيجية الإمبريالية... لماذا؟ لأن التجزئة هي في آن واحد محصلة ومفتاح الأوضاع الإمبريالية.

والوحدة ليست اتفاقاً بين دولتين أو عدة دول وحسب. إنها أكبر وأوسع من ذلك : إنها وعي سياسي وعملية تاريخية كاملة سياسية وايدولوجية واقتصادية واجتماعية .

إن التجزئة ليست وضعاً طبيعياً ناجماً عن تخلف المجتمع العربي. وليست وضعاً مصطنعاً فرضه الاستعمار في شكل حدود ودول وإعلام وأناشيد، وحسب.

إن التجزئة ليست حدوداً سياسية نجمت عن تعدد الدول الاستعمارية التي حكمت الوطن العربي، وحسب. إنها أكبر من ذلك بكثير، لقد أرسلت وترسل جذورها في الإنتاج وعلاقات الإنتاج .

فقد "خرجت" فرنسا من أقطار المغرب العربي من دون أن تتوحد هذه الأقطار. وهي اليوم اقتصادياً أبعد من أن تتحد في ما بينها من أن تتحد مع دول أوروبا الغربية! إن حجم التجارة في ما بين دول المغرب لا يشكل سوى ٣ بالمئة من الحجم الإجمالي لتجارتها الخارجية.

ولقد خرجت فرنسا من سوريا ولبنان من دون أن تعود وحدتهما. وخرجت بريطانيا من مصر والسودان والتطور الاقتصادي التلقائي لا ولن يدفع إلى الوحدة بينهما.

والإمبريالية تركز جهدها على هذا الخط الموضوعي، ذلك حجر الزاوية في استراتيجيتها العامة في إطار الوطن العربي. تلك هي الحقيقة العامة الوسطية التي لا تنطبق تفصيلاً مع أية حالة قطرية منفردة، ولكنها محصلة ومفتاح الوضع الإجمالي العام .

إن استراتيجية القوى الماركسية- اللينينية في الوطن العربي يجب أن تكون نقيض هذه الاستراتيجية الإمبريالية : هذا لا يعني بالطبع أنه ينبغي أن تضع شعار الوحدة في مقدمة الشعارات في كل مكان وزمان، في سوريا والعراق والمغرب وحضرموت، ولكن ينبغي أن تضع الوحدة في محور عملها الاستراتيجي في المرحلة التاريخية الكبرى : مرحلة القضاء على الرجعية والرأسمالية والإمبريالية والتجزئة و إسرائيل.

هذا الموقف هو الذي يميز الماركسي- اللينيني الذي يعي انتماءه لأمتة " ويرفض تحويل هذا الانتماء إلى أيديولوجيا في الوقت نفسه " عن الودويين التقليديين من جهة ، وعن شتى أصناف " اليسار " المصاب بضرب من الاغتراب القومي من جهة أخرى : الودويون التقليديون يتشجعون للوحدة مأخوذة بشكل معزول، ويرون في كل ما عداها مؤامرة لحجبها وطمسها ووضعها على الرف. أما أصناف ذلك " اليسار " فبين رافض للوحدة باعتبارها " انحرافاً قومياً شوفينياً " عن " الأممية البروليتارية"، أو يتحدث عنها على سبيل رفع العتب كإرضاء، بل كاحتيال على الجماهير، فيضعها كشعار بين عشرين شعاراً، في قطر أو في مرحلة، ثم يعود عنها في قطر آخر أو مرحلة أخرى ويرفع شعارات مناقضة.

إن تعاضم حركة الجماهير الودوية قد دفع ويدفع اليسار العربي ، غير المصاب بالاغتراب القومي، إلى مواقع مؤيدة للوحدة، أو غير معادية لها على الأقل، وإلى الاعتراف بأن الإمبريالية ضد الوحدة العربية، ولكن لا يزال هناك اختلاف حول حجر الزاوية في استراتيجية الإمبريالية.

بعض ذلك اليسار، على الرغم من أنه يعترف أن الوحدة معادية للإمبريالية ، إلا أنه يرى أن صلب ما تستهدفه الإمبريالية هو منع قلب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية العربية.

هذه النظرة العامة التقريرية تغفل أن التجزئة- كما قلنا قبل قليل- تشكل محصلة الأوضاع الإمبريالية ومفتاحها. لذا فإذا كان منع قلب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية هو صلب ما تستهدفه القوى الإمبريالية، فإن حماية التجزئة وتعزيزها هو صلب هذا الصلب، وليس شيئاً "آخر".

لذا فإن خلاف الماركسي- اللينيني مع هؤلاء ليس على حجر الزاوية فحسب ، بل على تماسك البناء، الذي يراه متماسكاً، ومتماسكاً على نحو معين.

الموقف السياسي العربي الذي يستجرّ من القول بأن الوحدة العربية ضد الإمبريالية

الموقف السياسي العملي الذي نستنتجه من كون الوحدة ضد الإمبريالية، موضوعياً ، هو النضال في سبيل الوحدة وتأييد أية خطوة في هذا السبيل.

عدا ذلك، يكون القول إن الوحدة ضد الاستعمار قوياً لا قيمة له. إن النضال الودوي يضرب مواقع الإمبريالية عملياً . وهذا يعني أن ضرب مواقع الإمبريالية يتحقق بالنضال الودوي والسير في طريق الوحدة وتحقيقها ، أكثر مما يتحقق بالدعاوات المناهضة للإمبريالية.

إن تحقيق نضال جذري ضد الإمبريالية إنما ينطلق من تبني المنظور الوحدوي ، فهو وحده الذي يقص الروابط الإمبريالية.

وهذا النضال الوحدوي يترابط ويتداخل مع النضال ضد الرجعية والإقطاعية والرأسمالية، وليس أمراً منفصلاً عنه، غير أنه يتضمن النضال لإنضاج وتعميق الوعي الوحدوي، ومن أجل خطوات وحدوية واجراءات وحدوية متميزة محددة.

الموقف الماركسي- اللينيني العربي من وحدة برجوازية صغيرة- الطريق الاشتراكي إلى الوحدة العربية

أ- إن تعاليم البولشفية- اللينينية، المنبثقة من تجربة الثورة الروسية والعالمية، المكيفة عربياً، تعني ما يلي : أهداف النضال العربي هي الاستقلال والديمقراطية (السياسية والثورة الزراعية) والتأميم والوحدة والاشتراكية. وسير هذا النضال سير ثوري متدرج متصاعد متعاضد . ولكن لا استقلالاً كاملاً من دون وحدة ومن دون اشتراكية . ولا اشتراكية من دون وحدة . ولا وحدة من دون نضال دائم ضد الإمبريالية. ولا قطع نهائي لروابط الإمبريالية من دون وحدة.

ب- لقد ألقى التاريخ احتمال الوحدة البرجوازية الرأسمالية. ولكنه لم يبلغ نهائياً بعد احتمال الوحدة البرجوازية الصغيرة، وذلك لأن النضال الوحدوي لا يزال يجري، إلى حد كبير، تحت علم ايديولوجيا برجوازية صغيرة، ليست ايديولوجيا الرأسمالية ولا ايديولوجيا الطبقة العاملة ، بل ايديولوجيا وسطية معارضة موضوعياً للإمبريالية والإقطاعية والرأسمالية. ومعارضة لهذه القوى ، ذاتياً ، إلى حد كبير.

ج- من البديهي أن تعلن البروليتاريا طريقها الخاص إلى الوحدة العربية وتناضل في سبيله. ومن البديهي أيضاً أن تتقف الطليعة الماركسية اللينينية العربية الجماهير تحت شعار البروليتاريا الخاص : " الطريق الاشتراكي إلى الوحدة " ، وتجعله في رأس مهام النضال الفكري والسياسي، وأن تعمل لوحدة عربية تقودها البروليتاريا.

ولكن إزاء طابع الوحدة البرجوازية الصغيرة المعادي، موضوعياً ، للإمبريالية لا يسع البروليتاريا إلا دعم وحدة كهذه ، بل النضال في سبيلها.

يبدو أن التطور التاريخي قد أخذ يضعف فرص البرجوازية الصغيرة في بناء الوحدة العربية، ولكن حتى لو كان احتمال تحقق الوحدة في ظل البرجوازية الصغيرة لا يزيد عن ١٠ بالمئة يجب تأييد الشعار ومساندته عملياً ، والا أصبحت هذه الطليعة عقبة أمام التطور وأمام نمو الوعي لدى الجماهير، وأمام النمو الجدلي للواقع، للممارسة ، للثورة.

إذا لم تتبن الطبقة العاملة والناطقون باسمها شعار الوحدة، فإن ذلك سيؤخر وسيحبط قيادة الطبقة العاملة لحركة الوحدة نفسها، للحركة القومية.

في العالم العربي المعاصر، إن الطبقة العاملة لن تصبح " قائدة الأمة"، ولن تصبح " هي الأمة نفسها"- على حد تعبير ماركس وانغلز في البيان الشيوعي- إلا إذا تبنت الطبقة العاملة العربية مصالح الأمة العربية، وناضلت بلا تحايل في سبيل وحدة العرب القومية.

إن الطبقة العاملة العربية لا تستطيع إلا أن تؤيد وتساند الوحدة القومية العربية، حتى ولو كانت هذه الوحدة وحدة برجوازية صغيرة. إن معارضة الوحدة البرجوازية الصغيرة، في ظروف القوى

الموضوعية القائمة والعلاقات الموضوعية القائمة الداخلية والعربية والعالمية، تقود إلى خدمة الرجعية والإمبريالية. والوحدة البرجوازية الصغيرة هي أيضاً ضد الإمبريالية وإن لم يكن بشكل كامل منسجم. إنها ضد الإمبريالية موضوعياً ، وعلى صعيد الوعي إنها ضد الإمبريالية إلى حد كبير. والإمبريالية ضد الوحدة البرجوازية الصغيرة.

د- وما دامت قيادة البرجوازية الصغيرة ليست نهاية التقدم، فإن الخط المناسب للتقدم التاريخي الجدلي وصولاً إلى الثورة الاشتراكية، أي خط البروليتاريا الخاص، إنما يلخص بالثلاثية التالية:

(١) النضال في سبيل هذه الوحدة. (٢) توضيح مضمونها الطبقي للجماهير. (٣) توسيع محتواها الديمقراطي وترسيخه.

إن توضيح المضمون الطبقي للوحدة البرجوازية الصغيرة إنما يهدف، أساساً ، إلى الحفاظ على المواقع الطبقيّة للبروليتاريا العربية وتخليصها من قيادة البرجوازية الصغيرة وتأثيراتها، وبخاصة محاولة هذه الطبقة تحويل قضية الوحدة إلى ترس لمصالحها الطبقيّة وجعل الوحدة عقبة أمام تحرك الطبقة العاملة العربية.

أما النضال في سبيل توسيع المحتوى الديمقراطي لهذه الوحدة، فيرمي إلى تأكيد الحرص على مستقبل الثورة العربية الاشتراكي والنضال في سبيله، والعمل على تخطي الواقع البرجوازي الصغير للوحدة. وهنا تنبغي الإشارة إلى أنه من الخطأ اتخاذ "الديمقراطية" سلاحاً ضد المبادرة الوندوية، بل يجب أن نفهم العكس : التقدم في طريق الوحدة يعني توسيع المعركة ضد الاستعمار وانخراطاً أوسع للجماهير في النضال، وتأكيد فرص الديمقراطية والحرية بالتالي.

هـ- الطريق الاشتراكي إلى الوحدة لا يعني أن تحقق الوحدة يقف على تحقق " الاشتراكية " في كل قطر (ويأتي نتيجة تلقائية لهذه "الاشتراكية"). إن هذا المفهوم الإقليمي للاشتراكية هو على وجه التحديد، مفهوم سناليني.

والاشتراكية مفهوم واسع يتضمن : ملكية الشعب لوسائل الإنتاج (بما في ذلك التحويل الاشتراكي للزراعة)، تعبئة الطاقات الشعبية والموارد المادية لتنمية الإنتاج بشكل سريع على أساس تنظيم العمل وتوزيعه عقلاً، وإعادة النظر في العلاقات التجارية العربية والخارجية، الديمقراطية الشعبية وتحويل سلطة الدولة إلى سلطة الطبقة العاملة وحلفائها ، إعادة النظر في ايدولوجيا المجتمع والتربية والثقافة... وإلغاء الطبقات في النهاية.

ومن الواضح أن هذه الأهداف لا يمكن أن تنجز قبل تحقق الوحدة. ولكن من الواضح أنها تتحقق، جزئياً، وعلى نحو ما، قبل تحقيق الوحدة.

والوحدة تتطلب تحقق هذه الأهداف جزئياً . ولكن الوحدة هي في الوقت نفسه ضماناً لطريق سير هذا التحقق، ولسرعته ووجهته.

و- إن موضوعة الطريق الاشتراكي إلى الوحدة تعني :

(١) التمسك بالخط الاشتراكي، سياسياً وفكرياً ، والسعي إلى تعزيزه ونشره. وإلى تقديم مواقع البروليتاريا في النضال العام والنضال الوندوي .

(٢) التأكيد على أن الوحدة لا يمكن أن تقوم أو تنطلق من أسس رأسمالية ومعادية للاشتراكية (برجوازية، أو برجوازية وطنية). إن طريق الرأسمالية الوطنية لا يقود إلى الوحدة ، بل إلى عكسها : إنه يقود إلى حماية وتعزيز التجزئة في إطار الأوضاع الإمبريالية العالمية.

(٣) التأكيد على أن الوحدة (الوحدة البرجوازية الصغيرة) الممكنة والمطلوبة لغد قريب لن تكتمل وتتكامل إلا بأن تتجاوز نفسها إلى وحدة اشتراكية حقيقية تحت ايدولوجيا اشتراكية كاملة.